(٨)

من كلمات التأبين
كلمة
الأستاذ الدكتور / عبد الستار الحلوجى*

لست أرثيك ولكنى أناجيك. وكيف أرثيك وأنت تعيش فى قلبى وتعشش فى فكرى ووجدانى؟ كيف أرثيك وأنت لم تفارقنى ولن تفارقنى ما حييت؟ كيف أرثيك وأنت لم تمت فى نفسى ولن تموت؟

للمرة الثانية فى حياتى أحس بالضياع. كانت المرة الأولى يوم فقدت والدى رحمه الله، وكانت المرة الثانية يوم نعى إلى أستاذى وصديقى الدكتور الشنيطى وأنا بعيد عن أرض الوطن، فتمنيت لو كنت إلى جواره فى ساعاته الأخيرة. تمنيت لو شاركت فى تشييع جنازته وتلقى العزاء فيه كواحد من أبنائه.

وهأنذا أسترجع ذكرياتى معه وأغرق فى بحار الحزن على فراقه، وتعود بى الذاكرة إلى ثلاثين عاما مضت حين بدأت أسمع عنه، وكان وقتها كبيراً بكل المقاييس، وكنت صغيراً بكل المقاييس أيضا. وقدّر لى أن ألتقى به وأن أعمل تحت رئاسته وأن أحتك به احتكاكا مباشرا. وكان طبيعياً أن أختلف معه وأن اصطدم به فى بعض الأحيان، ولكنى لم أفقد حبى له واحترامى إياه فى يوم من الأيام.

*عالم الكتاب. ـ ع ٤٩ (يناير / فبراير / مارس / ١٩٩٦). ـ ص ١٨ ـ ٢٠

أذكر أنه فى أول عهدى به كلفنى بعمل لم أقتنع به فلم أنفذه، وكان باستطاعته يومها أن يحيلنى إلى تحقيق، وأن يوقع علىّ ما يشاء من عقوبة ولكنه لم يفعل واكتفى باستدعائى لمكتبه، وسألنى بغضب: ماذا تفعل حين تختلف مع أبيك؟. فأدركت قصده وأجبته قائلا: أفعل ما أفعله معك، أسمع كلامه بكل احترام ولكنى لا أنفذه. فضحك وقال لى بحنان شديد: كم هى ناشفة رأسك يا ولدى، وربت على كتفى وانصرفت، وقد تعلمت منه درسا من الدروس الكثيرة التى استفدتها منه.

وذات يوم من أيام فبراير سنة ١٩٦٩ جلست أمامه ليناقشنى فى رسالة الدكتوراه. ومن يومها أصبح بالنسبة لى أستاذا وأباً، ولم يلبث أن أصبح صديقا بعد أن تزاملنا سنين عدداً فى قسم المكتبات والوثائق وفى الماجستير والدكتوراه، وما أذكر أنى جلست إلى جواره فى لجنة مناقشة إلا أحسست بالضآلة أمام هذا الهرم الشامخ. وكثيرا ما كنت أذكره بل وأعلن على الملأ أننى منذ أكثر من عشرين عاما جلست معه مجلس التلاميذ من الأستاذ، ورغم مرور هذه السنين الطوال، مازال الأستاذ أستاذا ومازال التلميذ تلميذا.

كان من يومه خيراً سمحا إلى أقصى الحدود. ولعل كثيرين من شباب المكتبيين لايعرفون أنه استأجر فى الخمسينيات مكتباً فى وسط القاهرة لعمل أول كشاف تحليلى الصحف والمجلات المصرية على نفقته الخاصة، وأن هذا المكتب كان ملاذاً لكل من تضيق بهم سبل الحياة من تلاميذه ومحبيه. ولعل كثيرين أيضا لا يعرفون أننا كنا أحيانا نعاتبه على طيبته الزائدة وعلى سخائه الشديد مع تلاميذه، حين يناقش رسائلهم أو يقيم إنتاجهم العلمى، فلم يكن يرد علينا أكثر من ابتسامة صافية تشعرنا بالخجل، ويتحول وجهه المشرق إلى مرآة نرى فيها أحجامنا الحقيقية بالقياس إلى قامته العملاقة، وكثيراً ماكنت أعجب حينما أرى بعض من تتلمذوا عليه وجلسوا على موائده وسبحوا فى بحار فضله، وهم يتعاملون معه كما يتعاملون مع أندادهم، دون مراعاة لفارق سنّ أو فيض علم أو مزيد فضل. وكنت أختلس النظر إلى تعبيرات وجهه فلا أرى غضبا ولاثورة، ولا حتى مجرد امتعاض. ولم يكن لذلك من تفسير عندى سوى أن فعل الخير كان سجية وطبيعة فيه، وأنه لم يكن ينتظر من أحد جزاء ولا شكورا، ولم يكن يتوقع فيه من الناس اعترافا بمعروف أو رداً لجميل.

وأذكر أننا حين فكرنا فى إنشاء جمعية للمكتبيين فى مصر كان طبيعيا أن نختار لرئاستها شخصا نعتبره أباً للتخصص وراعياً له. شخصا يلتف حوله الجميع ويجلّونه ويستحون منه وتذوب الخلافات القائمة بينهم عند قدميه. ولم تجتمع تلك الصفات إلا فى أستاذنا الدكتور الشنيطى الذى لم يختلف حوله اثنان؛ فهو شيخ المكتبيين المصريين والعرب بلا منازع، والكل عنده أبناء وأحفاد، والكل أمامه تلاميذ ومريدون.

كان أكبرنا سناً وأرجحنا رأيا، وكان فى الوقت نفسه أشدنا نشاطا وأكثرنا حرصا على المهنة وإدراكاً لطبيعة التخصص، ومتابعة لما يطرأ عليه من تطورات عالمية. وما أثرنا قضية إلا وجدنا عنده الردّ الشافى والإجابة المقنعة والخبر اليقين. وما ذكرنا كتابا أو مقالا فى حضرته، إلا استخرجه من مكتبته الخاصة، وأتى لنا فى اليوم التالى بنسخة مصورة منه، دون أن يتقاضى أى مقابل عن هذا التصوير مهما كان حجمه.. وأذكر أنه طلب منى كتابا من عدة أجزاء، فقلت فى نفسى إنها فرصة سانحة لكى أردّ له بعض الجميل. وصورت له الجزء الأول وأعطيته له، وتعللت بأننى عثرت على مكتب يقدم أفضل تصوير بأقل سعر، وأننى سأحاسبه عندما أفرغ من تصوير بقية الأجزاء. فإذا به يقول لى: لا عليك من ذلك، فعندى تصوير لا يكلفنى شيئا من الجهد أو المال.

وظل ـ رحمه الله ـ حتى آخر لحظة من حياته يرعى تخصص المكتبات والمعلومات ويدافع عنه فى كل المحافل العلمية، وعلى جميع المستويات الإدارية والفنية. وكان حلمه الكبير أن يشهد مولد كلية لعلوم المعلومات فى رحاب جامعة القاهرة. ويشاء الله أن يشكل مجلس كلية الآداب فى آخر جلسة حضرتها لجنة خماسية لدراسة هذا الموضوع. وكان طبيعيا أن يكون الدكتور الشنيطى على رأسها. ولكن القدر لم يمهله حتى يرى الحلم وقد تحقق، والبذرة التى غرسها وقد أنبتت. فبعد عدة لقاءات ذهب ثلاثة من أعضاء اللجنة فى سفرات قصيرة، ولم يكن أحد منهم يدرى أن الشيخ الجليل مقبل على سفر طويل وأنه سيترك حلمه أمانة فى أعناقهم، وأنه آن له أن يستريح من هذا العبء الثقيل الذى حمله سنين طوالا، وآن لهم أن يتولوا حمله واستكمال المسيرة من بعده على هدى من فكره وبصيرته.

ماذا أقول وقد صدمتنى المفاجأة؟ ماذا أقول وأنا الذى لم يخطر ببالى قط أن يأتى يوم

أفقد فيه الأب والأستاذ والصديق وأنا بعيد عنه وعن أرض الوطن، وأن يتحول النموذج والقدوة إلى سطور تنعاه فى صفحة الوفيات؟

وأسأل نفسى فى حسرة: ماذا سيكون شكل القاهرة فى عينى وطعمها فى حلقى، حينما أعود إليها فلا أجد فيها من أستاذى ومعلمى غير أطياف من الذكريات يموج بها صدرى وتتراءى أمام ناظرى؟ ماذا سيكون شكل الكلية التى تعودت أن ألقاه فيها حينما أعود إليها وأبحث عنه فلا أجده لأنه مضى إلى هناك، إلى المصير المحتوم الذى سبقه إليه أبى منذ بضع سنين فانهدم برحيله الصرح الذى أوانى، والجدار الذى كنت ألوذ به واحتمى فيه كلما ضاق بى الصدر أو أحزنى أمر، أو ألمّ بى مكروه؟ واليوم ينهدم جدار آخر، وأجدنى وحيدا فى صحراء الحياة، أواجه وحدى أعاصيرها وأتجرع وحدى كئوس همومها بعد أن رحل الأحبة وأقفرت الواحة الظليلة التى كنت آوى إليها فراراً من وطأة القيظ ولفح الهجير.

ولست أدرى لماذا لم أودعه قبل السفر؟ ألاننى لا أحب مواقف الوداع ولا أقوى على احتمالها؟ أم لأننى لا أحب أن يكون بينى وبينه وداع؟

إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإن الفؤاد ليجزع، لكنها إرادة الله التى لا رادّ لها، ومشيئته التى لا معقب عليها والنهاية التى تنتظرنا جميعا. ولا يصح أن نقول إلا ما يرضى الله فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ويا رحمة الله اهبطى من سبع سماواتك على كل حبيب ضمه الثرى ـ وكم ضم الثرى من حبيب ـ وعلى كل غالى رحل من عالم الفناء إلى دار البقاء، وما أكثر الذين سبقونا إلى هناك. وصدق الله العظيم إذا يقول: «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن الدار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».